تمهيد:

لقد امتزج ذكر المدينة في الشعر العربي المعاصر بما يعانيه الشاعر من مظاهر الظلم والتعسف والاستدمار والفقد والضياع، كما ارتبط ذكرها عنده بالدعوة إلى هجرها والتخلص من كل القيود التي تحيطه منها، ولأن الشاعر المعاصر وجد فيها الاغتراب والغربة والضياع وأضحى حبها عنده مرفوضا، فقد كان لزاما عليه أن يتحدى ويسعى لتحقيق الصبح الجميل في القرية، التي تزداد حاجته إليها كلما تعمق إحساسه بالضياع، ولا يجد العزاء إلا في ذكرها فما هو موقف الشاعر "بلند الحيدري" من المدينة؟.

1-المدينة في شعر بلند الحيدري:

إن من حق الشاعر العربي المعاصر أن يشعر هو الآخر بغربة فضيعة في هذه المدينة التي لجأ إليها طلبا للأمان والراحة والشبع، فلم يجد فيها غير القسوة والانغلاق والصد، فهو ليس مقلدا دائما للغرب؛ وإنما يعبر عن شعوره الحقيقي تجاه هذه المدينة الحلم الصادم، ولهذا كان تعاملهم مع هذه المدن غاية في القسوة على نحو ما وشحه بلند الحيدري في بعض قصائده وإن قلت، إلا أنه أظهر فيها موقفه المعادي والرافض لكل ما تحويه المدن من حضارة وتقدم:

كان الشتاء يحز أرصفة المحطه

وتموء عاصفة كقطه

وعلى الطريق

يهتز فانوس عتيق

فيهز قريتنا الضنينه

ما سأفعل في المدينه؟ .

لا توجد في المدينة الفصول الأربعة وإنما يحويها فصل واحد على مدار السنة؛ وهو فصل الشتاء الذي يرمز لبرودة مشاعر من فيها؛ فلا دفء ولا حرارة في علاقات الناس بعضهم ببعض ويواصل تذمره من المدينة قائلا:

ستضيع خطواتك الغبية في شوارعها

الكبيره

ولسوف تسحقك الأزقات الضريره

ولسوف

ينمو الليل في أعماقك الصماء آمالا حزينه

.....ماذا ستفعل في ال

وبلا صديق

.....لا

ليس في تلك المدينة من صديق

يعلن الشاعر استياءه الشديد من المدينة فيسميها "خطوة ضائعة" لأن أزقتها ملتوية غير واضحة وضوح القرية، وهي إلى جانب ذلك ضريرة "عمياء" لا يستطيع الشاعر فيها أن يجد مخرجا أو نهاية، ولهذا يسأل ويسأل عما سيفعل فيها، وفي شوارعها التي لا محالة ستضيع خطواته فيها لكبرها كل ما في المدينة يحمل على اليأس والتشاؤم والخوف، إذ أن ليلها يبعث الحزن والألم والعذاب ولا صديق فيها يؤنسه ويرشده حتى لا تضيع خطواته، وحده في أزقتها العمياء بلا رفيق يشاركه ويؤنس وحدته ووحشته رغم زحمة المدينة بالناس وبالأشياء لا تربطهم عاطفة حب أو ود ولعل هذا الشعور بالوحدة ليس مجرد أثر لانقطاع علاقة عاطفية بين الشاعر وغيره؛ وإنما هو انعكاس كذلك لوجه الحياة في المدينة والعلاقات المحددة

والخوف والحذر من الآخر حد الشك. ولا ينتهي تذمره من المدينة وما تحويه عند هذا الحد، فهو يهزأ حتى من الأمور والظواهر الطبيعية التي لا دخل ليد الحضارة فيها:

وهناك يجتاح الدجى المصدور

إنسان غريب

هجر المدينة هازئا

بالليل

بالريح الغضوب

إن هو ما في دربه

فبقلبه انفجرت دروب

أو حطم روضا له

فخياله روض قشيب

ينضاف إلى رفضه للمدينة سخريته منها ومن ليلها وريحها، إذ يحسها ريحا غضوبا وليست ريحا طبيعية عادية، وكأن علاقته بها هي صورة الغريب في عالم الجحيم؛ لأنها تسد في وجهه الدروب وتحطم روضه النضير فتسلبه روحه، ولكنه لا ييأس ولا ينهزم بل يصنع مدينته البديلة فتنفجر في قلبه دروب وفي خياله يزهر روض قشيب.

إنها عالم مشحون بالحزن والوحشة والسأم تهد كل شيء حتى الجمادات، فهذا أضخم المباني "القصر" يضيق ذرعا بالمدينة لأنه وُجِدَ في منعطفها:

القصر

في منعطف المدينه

تغل جبينه رؤى حزينه

تكاد أن تصرخ في السكينه

وحشته القاتمة، اللعينة

كان من اللائق بالقصر أن يكون وسط المدينة حتى يتراءى للعيان وإن كان واضحا ظاهرا جليا ولو في زاوية صغيرة، لأن شكله هو الذي يعطي له خصوصيته وليس المكان الذي يوجد فيه. وأرراد "بلند" أن يبين قسوة المدينة وظلمها لكل شيء على لسان القصر، الذي يحمل في ثناياه رؤى حزينة ووحشة قاتمة لا لشئ إلا لأنه وضع في زاوية المدينة ومنعطفها، ولم تمنحه مكانا متميزا يليق ببنائه الذي يميزه عن باقي المباني ولأن هذا المنظر حز في نفسه أعاده في موضع آخر وبصيغة أشد تذمرا من المدينة، حين يقول:

ما أخلد الموت...

وها آشور

محاجر غص لها الشعور

يصلبها هذا السنا المحجور

في كوة القصر الذي يغور

يغور في منعطف المدينه

تغل جنبيه رؤى حزينه

تكاد أن تصرخ في السكينه

وحشته القاتمة اللعينة

إن الشاعر يخشى من المدينة منعطفاتها وانحناءاتها لأنها تقود إلى المجهول، ولأنها رمز اللف والدوران والغموض، فالأشياء الجميلة في المدينة كهذا القصر لا تكاد تدرك أو ترى، لأنها لا تجد لها مكانا إلا على الهوامش والمنعطفات، ويرى في الموت راحة وخلودا لهذا القصر.

يصر "بلند الحيدري" على نعت المدينة بالضياع والتسيب؛ لأنها لا تنفع الإنسان في شيء عكس القرية التي تيسر متطلبات الحياة وتلبي حاجات الإنسان وتسليه وتنسيه همومه وأحزانه:

قد أضلتنا خطانا..... فانتهينا

بعض أفكار حزينه

بعض حقد وضغينه

ورموزا لمدينه

لم تشيدها قُرانا

أترانا...

قد أضلتنا خطانا..... فالتقينا

كل ما يدور حول الشاعر يوحي بالنهاية والضياع، ضلت أفكاره حزينة وفي قلبه حقد وضغينة، ورموزا لمدينة لها يد في هذا، لأنها ليست من صنع قريته التي تحيطه بالبر والأمان وتنسيه همومه وتعلمه كل ما فيه خير، وترشده إلى الدروب الآمنة التي لا يضل فيها

مراجع المحاضرة:

-أحمد المعداوي: أزمة الحداثة في الشعر العربي الحديث.

-بلند الحيدري: الديوان: "أغاني المدينة الميتة "، "خفقة الطين".

-عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية.

-حنان بومالي: دلالة المدينة في شعر بلند الحيدري.